المفارقة عند سورين كيركجارد

أ. د. حسن يوسف طه (ضيف شرف المؤتمر)
أستاذ الفلسفة وعلم الجمال
أكاديمية الفنون – القاهرة

تعد المفارقة من المفاهيم الأساسية في البناء الفكري لكيركجارد .. وهو يرى أن المفارقة بمثابة الجوهر الذي تقام عليه المسيحية برمتها .. ودون تلك المفارقة تنتفي المسيحية برمتها!! وكيركجارد لديه الرغبة في معرفة واكتشاف الله .. أن تمتلئ الروح الأرضي بما هو سماوي مفارق.

ويبين لنا (جان فال) أهمية المفارقة Paradox عند كيركجارد، وكيف أنها احتلت مركزاً أساسياً في فلسفته؛ ذلك لأنه إذا كان خلاص الذات يتم عن طريق الإيمان، وإذا كان التحقق الأصيل للذات الحقة لا يكون إلا إذا استجابت لله بفعل من أفعال الإيمان، فإن علينا أن نتذكر باستمرار أن الإيمان هو إيمان (بالمفارقة) .. إن الأزلي قد تحقق في لحظة معينة من الزمان، وهذا ما لا يمكن فهمه، وهو رغم أنه لا يمكن فهمه فهو موجود .. وأول مفارقة تصادفنا في المرحلة اللادينية هي الإيمان بأن: الفرد بوصفه فرداً هو أعلى من الكلي .. يقول كيركجارد: ... الإيمان هو بالضبط إيمان بهذه المفارقة: وهي أن الفرد بوصفه الجزئي هو أعلى من الكي. وأن لهذا العلو ما يبرره، فهو ليس تابعاً ثانوياً، بل هو الأعلى والأكثر تفوقاً. لكن علينا أن نلاحظ أن ذلك يحدث على نحو يصير فيه الفرد، بعد أن كان تابعاً للكلي، أعلى من الكلي، وذلك لأن الفرد الآن يقف على علاقة مطلقة مع المطلق .. والإيمان هو إيمان بهذه المفارقة .. وإلا لم يكن إيمانًا قط.

اللاعقلانية والمفارقة المسيحية:

المفارقة عند كيركجارد تعني لحظة اللاعقل أو اللامعقول، وإذا تساءلنا عن السبب في أن كيركجارد كان مقتنعاً باللامعقول، فنقول إنه ربما كان ذلك بسبب مسيرة حياته، وقصة حبه، وأفعاله اللامعقولة معها، هذا جانب من إيمانه اللامعقول المترسخ في داخله. إلى جانب ذلك فإن الوجود ذاته لا معقول أيضاً. فمشكلة الوجود بالنسبة لكيركجارد لا يمكن أن تحل بشكل عقلي أو بشكل مقولات إنسانية مفهومة. فالإنسان كائن متناهٍ وكائن محدود إلى جانب أنه حامل للخطيئة، فكيف لذلك الكائن أن يقدم لنا حلاً؟ ما من حل عقلي، لأن الوجود ذاته لا معقول، ولا يمكن أن يوضع في قوالب عقلية منطقية.. فهناك الكثير من لحظات الوجود تتصف بالمفارقة (وهي لحظة اللاعقل)، ولذا يظل الوجود بمنأى عن كل ما هو عقلي[1].

وهنا نجد أن كلاً من هيجل وكيركجارد يقفان على طرفي نقيض.. فإن كان هيجل مفكراً عقلانياً، فإن كيركجارد مفكر اللاعقلاني.. لقد دفع هيجل بعقلانيته المسيحية إلى أقصى حد ممكن: وإذا تحقق الإلهي في التاريخ فتلك علامة على أن العقل قد تحقق في عالم الواقع، فأصبح المعقول واقعيا، والواقعي معقولاً. أما كيركجارد، فهو، على العكس يدفع باللاعقلانية المسيحية إلى أقصى حد ممكن، فهذا التجلي الذي تحقق في التاريخ عندما أصبح ألزليًا واقعيا ينبغي أن يبقى عثرة، إن األزلي قد تحقق في لحظة من الزمان، وهذا ما لا يمكن فهمه، ولأنه لا يمكن فهمه فهو موجود[2].

ويتضح لنا هنا أن كيركجارد يعترف باللاعقلي أي الذي لا يمكن فهمه، وإذا أصبح الشيء

---

1) Macquarrie: Existentielsm, P. 170.

٢) جان قال: كيركجارد المفارقة (مقتبس في) كيركجارد رائد الوجودية. إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الثاني. ط٨٦، دار الثقافة للنشر، ص ٣٩٨.

غير مفهوم فهو إذن موجود، فالوجود عنده لا أن يصبح معقولاً بل أن يصبح لامعقولاً. وإذا ما اعترضنا على ذلك لأن الوجود يجب أن نفهمه ونعقله، فإننا نجد كيركجارد ينبهنا إلى أن هناك أيضاً في الوجود أموراً تظل دوما مفارقة وبعيدة عن كل فهم وعن كل عقل[١].

ويجب أن يكون واضحا لنا أن كيركجارد لا يقصد من ذلك إلغاء كل ما هو عقلي، وكل ما هو موضوعي، وإنما يعترض بشدة ضد كل من يريد أن يجعل الذات أو يخضع الذات للفهم وللمقولات الموضوعية. وعلى ذلك فإن كيركجارد يريد الجمع بين ما هو موضوعي، وما هو ذاتي لأن الفرد الذي يفقد صلته بالعالم الموضوعي فقداً تاماً هو إنسان يوصف بالجنون... أيضاً الإنسان الذي يفقد صلته تماما بالباطن، أي يفقد صلته بذاته الداخلية، فإنه أيضا يوصف بالجنون[٢].

إن ما يريده كيركجارد هو أن نوقف الفكر عند لحظة ما... إنها لحظة المفارقة أو اللحظة الإيمانية، والتي لا يصلح معها أي فهم عقلي. فعلى حد تعبير كيركجارد: إن المفارقة لا يسيطر عليها العقل، وذلك لأن الإيمان المبني على المفارقة هو إيمان يبدأ عندما يتوقف العقل عن عقلانيته، أو بمعنى آخر يبدأ عندما تبدأ اللاعقلانية في الوجود[٣]، وعلى ذلك فإن قبول المفارقة عن طريق الإيمان المسيحي يجعل سبيل التفسير العقلي غير مقبول على الإطلاق[٤].

وثمة ملاحظة مهمة يلاحظها كيركجارد ويقررها؛ وهي أن المسيحية ديانة قائمة على المفارقة، وهذه المفارقة قائمة سواء اعتنق الفرد العقيدة المسيحية أو رفضها لمفارقتها[٥]. فقبول العقيدة يعني قبول المفارقة. ورفض العقيدة يعني أيضاً رفض المفارقة.. فالمفارقة هي الحد الأساسي سواء في القبول أو الرفض.

ويؤكد كيركجارد على ذلك بقوله: "إن الإيمان هو إيمان بالمفارقة. فالفرد الجزئي هو في الحقيقة أعلى من الكلي. ففي المفارقة يقف الفرد على علاقة مطلقة مع المطلق، وهذه العلاقة تصبح عسيرة على الفهم والتعقل، ورغم ذلك فالإيمان هو الإيمان بتلك المفارقة.. وإلا انتفى الإيمان"[٦].

في المفارقة يلاحظ كيركجارد جدل الزمان والأزل، ففي لحظة المفارقة تصبح الذات جامعة بين الماضي والمستقبل في الحاضر، وبمعنى آخر تصبح الذات أزلية. فماذا يعني دخول الأزلي الزماني؟ إنه يعني أن الحاضر لم يعد لحظة، بل يُعد لحظة أزلية، ومعناه أيضاً أن الأزل تحقق في لحظة حاضرة. إن اللحظة امتلأت بالزمان والأزل – كيف ذلك إنه اللامعقول وبرغم أنه اللامعقول، وبرغم أنه لا معقولية إلا أنه موجود كما سبق أن ذكرنا. وفكرة لحظة المفارقة لاحظها كيركجارد في الكتاب المقدس (العهد الجديد): "هو ذا سر أقوله لكم. لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير"[٧].

---

1) Macquarrie: Ibid, P. 45.
2) Kierkegaard: Concluding Unscientific. P. 174.
3) Kierkegaard: Fear and Trembling, P. 78.
4) Blockham J. K.: Six Existentialist Thinkers, P. 4.
5) Kierkegaard: Conclouiding.. . P. 96.
6) Kierkegaard: Fear and … P. 66.
٧) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 15 (51 :52) العهد الجديد، ص ٢٨٨.

فاللحظة هنا تعني الامتلاء، وهي اللحظة الأبدية، فكيف يحدث ذلك التغير؟ وكيف يمكن فهم ذلك التعبير بمفهوم عقلي؟؟ إن ذلك مستحيل، إنها اللحظة اللامعقولة. ولذا فإن تلك اللحظة هي التي استوقفت كيركجارد: ".. إن لحظة امتلاء الزمان هي لحظة الأزلية، وعلى الفرد أن يفهم جيداً أن اللحظة الأزلية معناها الماضي والمستقبل في خليط واحد. وإذا حدث ولم ينتبه الفرد لذلك الأمر، فإنه بذلك يدمر تلك اللحظة وتصورها. ففكرة الحاضر المسيحية في المفارقة معناها امتزاج الماضي بالمستقبل، وذلك هو التصور المهم في المسيحية"[١]. هنا يكون الإيمان، وهنا تكون المسيحية كعقيدة، وهنا تكون المفارقة. فالمفارقة ضد الزمان، لكنها امتلاء الزمان بالأزل.

يقول كيركجارد: "الذاتية أو الباطنية هي الحقيقة، وهي أقصى درجاتها المسيحية"، ويقول أيضاً: "لقد برهن اليونان أنه يمكن للإنسان أن يوجد في حالة الذاتية (أو الباطنية) خارج نطاق المسيحية"[٢].

من الواضح أن كيركجارد يقر هنا بأن إدراك الصلة القائمة بين الذاتية والحقيقة لا يقتصر على المسيحية، ولكنه يعطي المسيحية وضعاً خاصاً وممتازاً بالنسبة إلى سائر الديانات والفلسفات التي اعترفت بوجود هذه الصلة، وأدركت شيئاً من طبيعتها. ويتجلى هذا الوضع الخاص الذي تتمتع به المسيحية في قوله: "إن الذاتية في أقصى درجاتها هي المسيحية"[٣]. ماذا يعني كيركجارد بهذا القول؟

طبعاً عندما يتكلم كيركجارد (عن أقصى درجات الذاتية)، فهو لا يعني أن الفارق بين الذين يعيشون في حالة ذاتية ويعالجون المسيحية ذاتيًا، وبين الذين يعتبرون أن الحقيقة موضوعية (وبذلك يعالجون المسيحية موضوعياً) هو فارق كمي يتدرج من حد أدنى للذاتية حتى يصل إلى حدها الأقصى في المسيحية. إن رأي كيركجارد في هذا الموضوع واضح كل الوضوح: إن الفارق بين الحقيقة الموضوعية الاحتمالية، وبين الحقيقة الذاتية فارق كيفي لا يمكن تخطيه مطلقاً، وإنما يمكن التغلب عليه بوثبة الإيمان، وهو يرى، مع أن الإنسان تمكن من أن يعيش الحالة الذاتية في أقصى درجاتها، لأنها أعظم اختبار لقدرة الإنسان على الإيمان من أي عقيدة أخرى لكونها أبعد العقائد عن المنطقي والمعقول. المسيحية بالنسبة لكيركجارد هي دين المتناقضات والمفارقات التي تتحدى فهمه الموضوعي، وعلى ذلك تتعرض ذاتية الإنسان المؤمن بها لنوع من التوتر والإرهاق العنيف، فعلى المؤمن بها أن يلتزم بما هو محال (من الناحية العقلية) ليصبح مسيحياً حقيقياً. إن المسيحية بالنسبة لكيركجارد أسمى مثال على المبدأ القائل: بأن (الذاتية هي الحقيقة)، لأنها أكبر امتحان يمكن أن تتعرض له قدرة الإنسان على الإيمان، وعلى الاستمرار في هذا الإيمان من دون أن يرضخ مرة أخرى لجذب النظرة الموضوعية إلى المسيحية مهما كان الجذب والإغراء.

المسيحية مشكلة. ومشكلتها تكمن في اتحاد الزمان مع الأزل، فمشكلة التجسد هي كبرى

1) Kierkegaard: The Concept of Dread, P. 81.
2) Kierkegaard: Concluding unicienitific, P. 248.
3) Ibid: P. 242.

المشكلات في المسيحية.. لقد تجسد الله الأزلي في لحظة زمانية من لحظات التاريخ الإنساني، تجسد في المسيح. في تلك اللحظة تحول الله إلى شخص إنساني، فالمطلق أصبح محدوداً مع التجسيد. ومع تجسد الله في يسوع المسيح امتلأ الزمان، هذا ما عبر عنه بولس الرسول إلى أهل غلاطية في الإصحاح الرابع: ".. ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس: ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الأب إذا لست بعد عبداً، بل ابناً، وإن كنت ابناً فوارث لله بالمسيح"[١]. ومن هذه الرسالة نلمس فعل الامتلاء، فالله بتجسده في يسوع المسيح أصبح فرداً إنسانياً وفي الوقت نفسه ليس إنسانياً. لقد أصبح الإلهي إنسانيًا والإنساني إلهيًا.

والتفكير في المفارقة نوع من العبث، ونوع من المحال، فالفهم العقلي للمفارقة نوعٌ من المستحيل، والروح بمحاولتها للوصول إلى الله لابد أن تقدم نوعاً من الفداء والتضحية، وفي المفارقة المطلقة فإن كبش الفداء هو العقل. فالإيمان بالمفارقة هو نوع من المحال، فإذا أردت أن تؤمن، فإن عليك أن تؤمن بالمفارقة. فالإيمان المسيحي هو إيمان بالمستحيل وإيمان باللغز، إنه إيمان بالمعجزة التي تفوق العقل البشري. ويوم تؤمن بالمعجزة أي بالمفارقة، فأنت في دائرة الإيمان، وما عدا ذلك لا يُعد إيماناً، إن فكرة الله – الإنسان عثرة Offense أمام العقل، إن هذه العثرة تحطيم للعقل والفهم.

وإذا تساءلنا عن دور العقل في المفارقة، لوجدنا أن العقل مرتبط بشكل جدلي مع المفارقة المطلقة، هذا الارتباط يكون بطريقة سلبية. ومعنى أنه مرتبط بطريقة سلبية، أي أنه يوضح حقيقتها أي حقيقة المفارقة. بمعنى آخر إن المفارقة المطلقة تستوجب فقد العقل لكي تكون ممكنة. وهكذا تلعب فكرة المفارقة دوراً أساسياً في فلسفة كيركجارد، ولا شك فهو بنفسه القائل: "بقدر ما أعيش، فإنني أعيش في قلب المتناقضات، لأن الحياة مليئة بالتناقضات وأنا من ناحية أملك حياة أزلية، ومن ناحية أخرى أملك تعدداً للوجود الذي لا يستطيع النفاذ إليه. والرابطة هي الإيمان"[٢].

إذًا الديانة المسيحية ديانة التناقض. على أنه ينبغي ألا يفهم ذلك بشكل مطلق. ولكن التناقض هنا يعني المستوى الفكري للإنسان. فالفرد الإنسان يفكر بشكل عقلي، قابل للحكم بالصواب والخطأ، والتمييز بين المتناقضات، أما تلك الديانة فاعتمادها الأساسي على قبول ذلك التناقض والتعارض من دون لحظة فهم أو تحليل أو تعقل. إنها المجاوزة للمنطق العقلي وللفهم الإنساني، ولذا سماها كيركجارد المفارقة المطلقة.

ودخول الله إلى العالم وتجسده في المسيح تعبيرٍ عن الحب الإلهي للإنسان، وتعبير عن الألم أيضاً، إنها جدلية الإلهي والإنساني. إنها حقاً حياة عجيبة ملؤها الألم والحب. فعندما تريد التعبير عن الحب من المؤسف يساء فهمك. هكذا هو الله على نحو ما وقف على الأرض في المسيح وبكل تواضع وبكل الحب الشامل لكل البشر[٣]. إن هذا الجدل الإلهي الإنساني هو المفارقة.

---

١) الكتاب المقدس: رسالة بولس إلى أهل إغلاطية، الإصحاح الرابع، ص ٣٠٨، الطبعة المصرية.

2) Kierkegaard: The Journals, P. 181.

٣) جون ماكوري: الوجودية.. ص ٣١٤.

وفي رأي كيركجارد، لا يوجد أي حل عقلي أو بشري لمعضلة الوجود البشري، فليس ثمة حل بشري، لأن تناهي الإنسان وخطيئته يجعلان من المستحيل عليه أن يصل إلى خلاصه الخاص، وليس ثمة حل عقلي، لأن مفارقة الوجود البشري لا يمكن حلها بمقولات عقلية.

الحل الوحيد لمفارقة الوجود البشري لن يكون إلا بمفارقة أعظم هي المفارقة المطلقة للمسيحية، وقبل كل شيء، مفارقة التجسد، واللطف الإلهي بالإنسان. ولا يوجد، في رأي كيركجارد، أي دفاع أو تفسير عقلي للمسيحية، فقد قال ليسنج Lessing: إن حقائق التاريخ العارضة لا يمكن أن تكون أساساً لحقائق العقل الأبدية، ومن وجهة نظر العقل، فقد كان على حق في ذلك. أما كيركجارد فقد سلك طريق ترتليان[١] فقال إن المسيحية عثرة[٢] أمام العقل، ونحن لا نستطيع الإحاطة بها إلا بفعل الإرادة يتخطى العقل، وتلك هي (قفزة الإيمان). وتلك أيضاً هي (اللحظة) التي يقف فيها الإنسان أمام الله، اللحظة التي تصطدم فيها الأزلية بالزمن، وهذا لا يعني أن المؤمن تخلص من الزمان وصراعاته، وإنما تعني أن هناك بعداً للأزلية في حياته، وعلى حد تعبير مارتن ج. هاينكن Martin J. Heineeken يظل الفرد في وجوده بوصفه مركباً من الزمان والأزلية سائراً على الطريق باستمرار، في عملية صيرورة لأن يصبح ما يكونه بالفعل، ولكن بمعنى آخر، معتلياً على الدوام ظهر موجة القرار[٣].

وعلى ذلك فإننا نحقق الوجود الأصيل عند كيركجارد في اللحظة التي نوجد فيها أمام الله، وهي نفسها لحظة المعرفة الذاتية، ونحققه في الفعل الذي نريد به المسيح، والذي هو أيضاً الفعل الذي نريد به أنفسنا: "(أنا لا أريد سوى شيء واحد، أريد أن أنتمي إلى المسيح، أريد أن أكون مسيحيًا"[٤]. وهكذا فإن إرادة شيء واحد التي هي أيضاً إرادة ما هو أعلى، أي مفارقة المسيح والحياة المسيحية، هي التي تصغي إلى ما يسميه كيركجارد (طهارة القلب) وهي النزاهة والأصالة الوجودية.

الإيمان والخطيئة والغفران:

عن طريق الخطيئة أصبح الإنسان آثماً، وهذا الإثم جعل الإنسان يفقد العلاقة السليمة مع الله، ولأن الإنسان شعر بالإثم، فإنه أيضاً يفقد ثقته في إقامة علاقة صميمة مع الله. ويشعر بالتعاسة لعدم حصوله على الغبطة الأزلية. فالذات الخاطئة ألغت إمكان قدرة الذات على الوصول إلى سعادتها الأبدية. ولعل سبب الشعور بالتعاسة والألم أن الذات فُقدت في التاريخ الإنساني. ومن ثم فإنها تتأمل كل شيء حولها، حتى الدين فإنها تتأمله وتتعقله، ومن ثم يحدث النزاع. فالذات تود أن تصل إلى السعادة وهي تعلم وتعي أنها آثمة، وهذه الرغبة في وصولها للسعادة المنشودة تقيمها الذات أيضاً على أساس عقلي، أو على أساس الفهم والمنطق، وتنسى أن ذلك ضرب من المستحيل،

---

١) ترتليان (١٦٠ – ٢٣٠) مفكر لاهوتي مسيحي قرطاجي ذهب إلى أن موضوع الإيمان هو المحال واللامعقول (فتجسيد المسيح مؤكد لأنه مستحيل)، وهو الذي صاغ العبارة الشهيرة في تاريخ الفلسفة (أؤمن لأنه الإيمان لا معقول).

٢) العثرة Offense: مصطلح لاهوتي مسيحي استعاره كيركجارد من القديس بولس (لليهود عثرة ولليونانيين جهالة) كورنثوس الأولى الإصحاح الأول: ٢٢. والمقصود أن العقل يصدم بموضوعات الإيمان ولا يستطيع فهمها.

٣) المصدر السابق: ص ٣١٥.

٤) المصدر السابق: ص ٣١٥.

فلكي تصل الذات إلى سعادتها فإن عليها ألا تتعقل الأشياء، أو تتعقل الدين وتفهمه، وإنما عليها أن تلغي العقل والفهم في الدين، عليها فقط أن تدرك الإثم. إن لحظة الإدراك مطلوبة لاعتراف الذات لذاتها بالإثم. بمعنى آخر أن تواجه الذات فتعترف بإثمها، وتؤمن بشكل لا عقلي أن الوصول إلى العلاقة الودية إلى الله ممكنة، لأنها في تلك اللحظة عليها أن تؤمن بالعثرة أو المفارقة. إنها لحظة جدلية عند كيركجارد. إنه الفهم وإلغاء الفهم. فالفهم أمر هام لمواجهة الذات بذاتها، ولمعرفتها بالمفارقة والمغايرة بينها وبين الله، ولكن الفهم ذاته لابد أن ينتهي لكي تؤمن الذات بالمفارقة الدينية، وبالتالي فإنها تؤمن بإمكان الوصول إلى السعادة والعلاقة السليمة مع الله. "إن المسيحية تعلمنا أن الفرد موجود أمام الله بل وفي استطاعة هذا الفرد الجزئي أن يتحدث مع الله، بل أكثر من ذلك فإنها تعلمنا أن ذلك الإله الكلي هبط في لحظة إلى الأرض من أجل ذلك الفرد الجزئي!! وفي لحظة هبوطه ترك ذاته توجد وتولد وتعذب وتموت.. إنه الإله الذي يتعذب من أجل الإنسان، بل الأكثر من ذلك، إن الإله يرجو من الإنسان الجزئي أن يقبل مساعدته!!! وليس هناك ما يُذهب العقل أكثر من ذلك!!! وأكثر من تلك الحقيقة التي لا يمكن لأي عقل أن يفهمها أو يعقلها[١].

إن الله محب للإنسان، ولذا فإنه يغفر للإنسان خطاياه. يقول بولس الرسول: "طوبى للذين غفرت آثامهم، وسترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية"[٢]. والسؤال كيف تغفر الخطايا؟ الجواب إنه الغفران الإلهي، إنها المحبة الإلهية للإنسان، من أجل الإنسان تجسّد الله في صورة المسيح لكي يتمكن الإنسان من أن يكفر عن خطاياه. الله محب للإنسان، ولذا فإنه بالإنسان رؤوف رحيم. ربما شعر الله بضعف مخلوقه. لقد شعر الله بكبر الذنب الملقى على عاتق الإنسان وأشفق الرب من حِمْل الإنسان. لذلك فإن الرب أراد أن يتحمل ثقل الإنسان، وذنب الإنسان، لقد أراد الرب أن يعيد العلاقة المنفصمة بينه وبين الإنسان، إنها قمة المحبة، بالتجسد يحمل الرب ذنب الإنسان. بالتجسد يتحمل الرب عذاب الإنسان، بالتجسد يتألم الرب، إنه يتألم من أجل الإنسان!!! المسيح يستر خطايا الإنسان، إنه يسوع الذي يغطي بجسده المقدس خطايا الإنسان. إنها قمة العدالة، فعن طريق يسوع تُستر العيوب والخطايا، ويصبح من المستحيل رؤيتها..." [٣].

وعلى ذلك يرى كيركجارد أن غفران الخطايا ليس مستحيلاً بل هو ممكن ولكن بشرط أن يكون الفرد على وعي بتلك الخطايا، وعلى إدراك لها، في الوقت نفسه، أن يؤمن بغير تعقل بالمفارقة وبإمكانية الغفران، هذا هو المهم في غفران الخطايا. والسؤال الآن ماذا يعني التجسد المسيحي: إنه يعني أن الخطايا يمكن أن تُغفر، والوعي بإمكان الغفران يُعد لحظة ضرورية، فمن الضروري أن يكون الفرد واعياً بشكل مستمر بأنه مخطئ، فهذا هو واقعه الفعلي. وواعياً أيضاً بإمكانية الغفران، لحظتان أساسيتان في داخل الفرد: لحظة الوعي بالخطيئة، ولحظة الوعي بإمكانية الغفران.

والسؤال لماذا يُصر كيركجارد على تلك اللحظات؟؟ لحظة الوعي بالذات الخاطئة، ولحظة

---

1) Kierkegaard: Sickness unto Death, P. 210.

٢) رسالة بولس إلى أهل رومية: الإصحاح الرابع ٧: ٨.

3) Kierkegaard: Ibid, P. 211.

الوعي بإمكانية الغفران؟؟ والإجابة هي أن كيركجارد أراد أن يكون الفرد متفهماً لذاته. فالفرد لابد أن يفهم ذاته بوصفها ذاتاً خاطئة، وأيضاً ذاتاً مغفوراً لها. ومعنى ذلك أن الفرد لا يمكن أن يلغي حياته الماضية (حياة الخطيئة) لأنها متكون أساسي من مكونات ذاته، وفهم تلك اللحظة يجعل للغفران معنى وقيمة. فبرغم أن الماضي للذات هو بمثابة الخطيئة، لكن أيضاً لا ينبغي إلغاؤه، ولو فرضنا إلغاءه بجرة قلم، فمعنى ذلك أن حياة الغفران أو لحظة الغفران يمكن أيضاً أن تُلغى بجرة قلم، ولكن وعي الفرد بذاته الماضية الخاطئة، وأمله الدائم في الغفران، ثم إيمانه المطلق بإمكانية الغفران يجعل لذاته معنى. وهنا نفهم إصرار كيركجارد على وعي الفرد بلحظة الخطيئة، ووعيه أيضاً بلحظة الغفران، لقد كانت رسالة المسيح إلى الإنسان أن يجعل حياته أكثر أملاً، أن يجعل الحمل خفيفاً على المؤمن، أن يجعله يتذكر دوماً أن الذات الخاطئة تغفر لها خطاياها. عليه أن يتذكر دوماً أنه كان مثقلاً بهموم الخطايا والآن تغفر له تلك الخطايا. فالإيمان يقول: لتتذكر دوماً أن خطاياك قد غفرت لك. عليك أيها المؤمن أن تتذكر ذلك دوماً..[1]، وهناك فكرة مهمة أيضاً في تلك المسألة وهي أن التجسيد الإلهي، يعني الحب الإلهي للإنسان، فالله محب للإنسان، ولأنه محب له فقد تجسد الله في المسيح، لقد أشفق الله على الإنسان، وأراد به الرحمة لأنه يحبه، فإنه يود الآن أن يغفر له خطاياه: "إنه الحب الأزلي، حب الله للإنسان جعله يظهر في لحظة، ولكن هذه اللحظة لا يمكن فهمها، ولا يمكن قياسها"[2].

إنها لحظة مفارقة لحظة أزلية في ما هو زماني!!

ويتساءل كيركجارد ماذا يعني التكفير؟.. ماذا يعني غفران الخطايا للإنسان؟؟

إنه يعني أن الله لا يتغير في حين أن الإنسان يعتريه التغيير. إن الرب يعلن للبشر أنهم يتغيرون، لأن الخطيئة ملازمة لهم، في حين أن الرب يظل بلا تغيير. والمهم في المسألة أن الإنسان هو بالفعل القابل للتغيير في حين أن الله غير قابل للتغيير، وهذا هو الذي يحتاج إليه الإنسان، فالإنسان في حاجة دوماً إلى الرب الذي لا يتغير[3].

ويلاحظ كيركجارد أن التكفير يتم من خلال يسوع.. وفكرة التكفير عن الخطايا لا تحدث تغيراً أنطولوجياً لكنها تحدث تغييراً فردياً، أي الفرد الخاطئ، فالفرد الخاطئ يقوم بعلاقة بينه وبين الله المتجسّد في المسيح من أجل إمكان الغفران.

ويشير كيركجارد إلى أن حادثة تجسّد الله في المسيح لابد أن يُنظر لها بشكل أعمق، بمعنى لا ينبغي أن نتصور أن تلك الحادثة سوف تؤدي إلى غفران الخطايا بجرة قلم. فالحادثة، أقصد حادثة التجسد، لا تغفر الخطايا بذاتها، ولكن الغفران يتم وفق جدل.. يمكن تسميته بجدل غفران الخطايا، والذي حوي لحظتين مهمتين وهما الرغبة في الغفران.. وهذه لحظة أساسية وهامة؛ فالتجسد تم على أساس رغبة الله في غفران خطايا الإنسان. هذه الرغبة هي اللحظة المهمة والضرورية

1) Kierkegaard: Trining in Christionity, P. 65.
2) Kierkegaard: Philosophical Fragments, P. 30.
3) Kierkegaard: The Journals, P. 123.

والأساسية في جدل الغفران إلى جانب لحظة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي لحظة الإيمان بإمكان الغفران من جانب الفرد المخطئ.

وإذا فرضنا جدلاً أن التجسد كلحظة أولى موجود، أما اللحظة الثانية وهي الإيمان بإمكانية الغفران غير موجودة، هنا تكون المشكلة. فالجدل لا يتم هنا، حيث يترتب على ذلك وجود خطيئة على الخطيئة الأصلية، أقصد خطيئة عدم الإيمان في الغفران، بمعنى آخر أو بلغة كيركجارد، وجود عثرة.. إذاً غفران الخطايا يتم بالتجسد، أو من خلال الإيمان بالمفارقة المطلقة. فوجود المفارقة يحتاج إلى الإيمان بها، هنا يتم الغفران[١]. وهنا نلاحظ نوعين من المفارقة: مفارقة التجسد ومفارقة الإيمان بإمكانية الغفران من قِبَل الأزلي تجاه الزماني، وإن كيركجارد يتمسك بذلك الجدل إلى الدرجة أنه لا يتصور إيمان بغير ذلك الجدل. فالغفران يتضمن العلاقة بين الموجود الزماني والأزلي. وهذه العلاقة ذاتها تحتوي على المفارقة، وذلك لأن الموجود الزماني موجود آثم. ورغم ذلك فإنه يرتبط بعلاقة قوية مع الأزلي. والغفران لابد فيه من أن يشعر الفرد بأنه آثم، على أن يكون ذلك الشعور بالإثم شعوراً ذاتياً. وهذا الشعور الذاتي بالإثم يسبب أعمق ألم وعذاب ممكن للفرد. وفي تلك اللحظة عليه أن يفقد إيمانه بالفهم. وأن يتمسك بإيمانه الجوّاني بالمفارقة، أي إيمانه بإمكانية الغفران[٢]. هذا هو جدل الإيمان بغفران الخطايا عند كيركجارد، وهو فهم جديد وعميق للعلاقة بين الفرد والرب. تلك العلاقة القائمة على المفارقات. وجدل الغفران لا ينتهي بالإيمان بإمكانية الغفران. ولكن ثمة لحظة مهمة أيضاً هي لحظة النتيجة. فإيماننا بإمكانية الغفران عن طريق الرب يعني أن الرب بالنسبة للفرد الآثم هو المثال (Ideal)، بمعنى هو الأمل المنشود، وهذا الأمل وهذا المثال له تأثير في الفرد الآثم، إذ من خلال ذلك الإحساس بالخطيئة، وإيمانه العميق بإمكانية الغفران، وأمله المتوجه إلى مثله الأعلى هنا يكتشف الفرد ذاته الحقيقية، إنها لحظة التحول من الحسي إلى الروحي. إنه يكتشف ذاته الحقيقية، ذاته الروحية وليست المادية. في تلك اللحظة تواجه الذات نفسها فتكتشف حقيقتها، وتتحول من ذات جزئية مشتتة عن طريق الخطيئة إلى ذات أصيلة روحية. "فالإيمان بإمكانية غفران خطايا الفرد هو لحظة تغيير جذري. ففي تلك اللحظة يتحوّل المرء البشري إلى ذات روحية. غفران الخطايا يلغي الجزيئات ليشمل ذات الفرد الكلية الشاملة، إنها الذات الروحية..." [٣].

هنا يحقق جدل الغفران هدفه. وهي اللحظة التي أدركها كيركجارد من إمكانية الغفران، فالفكرة لا تقف عند حد غفران الخطايا ونسيانها، بل تصل بالفرد من حالته الجزئية إلى حالة كلية شمولية.

ولعل بتلك الفكرة انتقل كيركجارد من رجل فلسفة إلى رجل دين متصوف من الدرجة الأولى. وربما لا نجانب الصواب إذا قلنا إنها لحظة حدس قلبي فيها يكتشف الفرد ذاته الجزئية التي يتجاوزها للوصول إلى الذات الروحية الحقيقية.

---

1) Kierkegaard: Fear and Trambling, P. 62.
2) Kierkegaard: Concluding Unscientific, P. 257.
3) Kierkegaard: The Journals, P. 228.